

فَقْدَةُ بَيْنِ يَدِي الرِّسَائِلِ

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

وصلی اللہ علی محمد وآلہ الطیبین الظاہرین واللعنۃ الدائمۃ
علی أعدائہم أجمعین من الآن إلی قیام یوم الدین

تہید:

ہذہ مقدمۃ نافعۃ للأستاذ والطالب معاً، ألقاها سماحۃ الأستاذ
الجلیل السید ضیاء الخباز - حفظہ اللہ وأیدہ- فی إحدى دوراتہ
علی کتاب الرسائل، والتي عقدها فی قم المقدسۃ صانها اللہ
وأهلها من کل بلاء ووباء.

ومن أجل تعمیم فائدتها وسہولۃ الوصول إلیها ارتأیت أن أقوم
بتقریرها کتاباً بعدما نشر تسجيلها الصوتی فی بعض منصات
التواصل الاجتماعی، وإن وجد فیها خطأً وزلل فهي من اشتباه
المقرر لا من المقرر له.

وأسأل اللہ تعالی أن یتقبل منی هذا العمل وأن ینفع به طلبۃ
العلوم الدینیۃ زاد اللہ فی توفیقہم.

قبل الشروع في مطالب هذا الكتاب الشريف لابد من التعرض إلى
مجموعة من الأمور:

الأمر الأول: أهمية كتاب الرسائل

(١)

للشيخ الأنصاري قده أثران مهمان وهما: كتاب المكاسب وكتاب
الرسائل، وبقية آثاره لا تقل عنهما أهمية، ولكن مقصودي من التخصيص
بهذين الأثرين هو أنّ هذين الكتابين صارا منهجين في الحوزة العلمية
المباركة.

وما يميزهما هو أنّ كتاب المكاسب هو الأساس للفقهاء المعاصرين الذي
وصل إليه الفقه الإمامي في هذه المرحلة، إذ كل ما جاء في فقه
المعاملات بعد الشيخ الأعظم قده فهو مبني على تأسيسه وتقعيده الذي
جاء به في كتاب المكاسب، بحيث أن بعض الأعلام يرى أن جميع ما
كتب بعد الشيخ الأعظم في فقه المعاملات - وإن كان على مستوى
بحوث الخارج - فإنما هو من قبيل الخارج على كتاب، فمثلاً: (مصباح
الفقاهة) للسيد الخوئي قده - الذي هو حصيلة أبحاثه العليا - ليس بحثاً

مستقلاً، وإنما هو بمثابة التحشية والتعليقة على مكاسب الشيخ الأعظم، وهذا شاهد والشواهد كثيرة، وهو إن كان يكشف عن شيء فإنه يكشف عن كون كتاب المكاسب هو الأساس للفقهاء المعاصرين الذي بلغه الفقه الإمامي في هذه المرحلة.

(٢)

وإلى جانب هذا الأثر يوجد أثر نفيس آخر وهو كتاب فرائد الأصول المشهور في أوساط الحوزة باسم كتاب الرسائل؛ لأنه بمثابة رسائل متتابعة في مطالب أصولية متفرقة كالبراءة والاستصحاب وغيرها.

وأهمية هذا الكتاب تتجلى من خلال التأمل في الأمر التالي وهو:

عندما نضع يدينا الآن على المدرسة الأصولية المعاصرة التي تفرض نفسها على الحوزات العلمية، فإننا نجد أن مدرسة السيد الخوئي قده هي المدرسة المهيمنة على الدروس الأصولية.

ومما يجدر الالتفات إليه أن مدرسة السيد الخوئي قده ليست مدرسة مستقلة وإنما هي مدرسة تَنمى لمدرسة المحقق النائيني قده، بمعنى أننا إذا أردنا أن نصنف مدرسة السيد الخوئي في الأصول فإن مدرسته لا تبتعد

كثيرا عن مدرسة المحقق النائيني قده، ولنا أن نقول إنها أقرب لمباني المحقق النائيني قده من مباني المحقق الأصفهاني والعراقي، حيث نرى أنّ مدرسة المحقق النائيني انعكاسا واضحا على مدرسة السيد الخوئي قده، مما يعني بحسب المحصل أن المدرسة المهيمنة على الأبحاث الأصولية العليا هي مدرسة المحقق النائيني.

وإذا كان الأمر كذلك فحينئذ نقول: إنّ مدرسة المحقق النائيني قده ماهي إلا تشريح لمدرسة الشيخ الأنصاري قده، فكتاب الرسائل وما اشتمل عليه من الأفكار الأصولية تطور على يد المحقق النائيني قده، بحيث أنه كان قادرا على بعث أفكاره من جديد وبلورتها وتشبيدها وبنائها مع القبول بها في موارد دون موارد أخرى.

وهذا يعني أنّ جذور مدرسة المحقق النائيني تمتد إلى مدرسة الشيخ الأعظم قده، وبهذا ننتهي إلى النتيجة التالية التي تبين لنا أهمية كتاب الرسائل وهي:

أن المدرسة المهيمنة - في مباحث الحجج والأصول العملية ومباحث تعارض الأدلة - هي مدرسة الشيخ الأنصاري قده؛ إذ أنها هي الأساس لمدرسة المحقق النائيني فمدرسة السيد الخوئي قده.

وعليه فإن دراسة هذا الكتاب تكون على درجة بالغة من الأهمية؛ لأن أفكار هذا الكتاب تمثل الأساس للأفكار الأصولية المعاصرة، وإذا اقترنت دراسة الرسائل مع ملاحظة ما أفاده المحقق النائيني قده فإن ذلك يساعد الطالب جداً ليهيئ نفسه للأبحاث العليا، الناظرة بشكل أساسي لمدرسة المحقق النائيني قده.

وبهذا البيان يتضح وجه أهمية دراسة هذا الكتاب الجليل، فلا نطيل أكثر من ذلك.

الأمر الثاني: ما هو السبب الذي جعل كتاب الرسائل يفرض نفسه

كمنهج حوزوي؟

(١)

أما كونه قد فرض نفسه فهذا يشهد به الوجدان، ولكن السؤال عن السبب الذي جعله يفرض وجوده في المناهج الحوزوية إلى يومك هذا؟ مع إنه قد كتب هذا الكتاب في بدايات حياته العلمية، وفي الحقيقة هذا هو الفارق بين كتاب الرسائل وكتاب المكاسب، فإن الثاني يمثل ذروة الفكر العلمي للشيخ الأعظم قده؛ لأنه كتبه في أواخر حياته، أي بعد نضجه علمياً، وأما كتاب الرسائل فقد كتبه في أيام شبابه، ورغم ذلك فإن هذا الكتاب قد فرض نفسه، وتلقته الحوزات العلمية بالقبول منذ بداية تصنيفه إلى يومنا هذا، بل أصبح آية ناسخة؛ فإن بعض المناهج الحوزوية التي كانت تدرس في أوائل خروج هذا الكتاب للنور تم نسخها لاحقاً على يد كتاب الرسائل، ككتاب الفصول، كتاب القوانين .

(٢)

وعليه فما هو السبب الذي أوجب أن يفرض الكتاب نفسه بنفسه؟
نقول في مقام الجواب: أن هذا الكتاب تميز بعدة مميزات أوجبت أن
يكون متقدما على غيره، ونشير إلى أربع منها:

الميزة الأولى: الجامعية.

فهو كتاب جامع بين التتبع والتدقيق والتحقيق، فإن من يلاحظ ما كتبه
الشيخ الأعظم قده يلحظ بأن الشيخ الأعظم كان له تتبع دقيق وعجيب
لكلمات أعظم الأصوليين مطلقا، ما اشتهر منها وما لم يشتهر، إلا أن
محض التتبع ليس هو الميزة الوحيدة، وإنما جمع بين التتبع والتدقيق، فإنه
لا ينقل كلمة عن علم من الأعلام إلا ويقف عندها وقفة المدقق،
مستخرجا لكنوزها ومجليا لمخفي نكاتها.

ثم بعد التدقيق والتتبع تأتي مرحلة التحقيق، فما كان يكفي بتتبع
الأقوال واستفادة النكات منها، بل كان صاحب رأي ونظر في قبال

الآراء التي ينقلها، فهو محقق مدقق، وهذه ميزة تحسب لهذا الكتاب وهي الجامعة بين التتبع والتحقيق والتدقيق.

ولعل هذه الميزة قد اعتبرها البعض أمرا سلبيا يؤخذ على الكتاب، لا أنها نقطة إيجابية تحسب له، وذلك من جهة أن التتبع الذي استقصاه الشيخ الأعظم قده في بعض الموارد قد أوجب اللبس على الطالب والتشويش، فإنَّ الشيخ الأعظم حينما يمرُّ بكلمات متعددة لأعلام الأصوليين، وعند كل كلمة يقف محققا ومدققا، يوجب ذلك التشويش لدى الطالب والغفلة عن المطلب الأساس، سيما وأن الشيخ الأعظم قده تكون تحقيقاته في بعض الموارد ما بين زوايا الكلمات لا أنه يستعرض الكلمات ثم يدقق فيها ثم يحققها وينتهي إلى نتيجة، بل في بعض الأحيان يحقق مطلبه بين الكلمات وفي أثنائها مما يضيع على الطالب المطلب الأساس للشيخ الأعظم.

ولكن المدرّس إذا كان ملتفتا لهذه المشكلة فإنه يمكن تجاوزها بسهولة، هذا من جهة ومن جهة أخرى لا نسلم بأن هذه الطريقة في التتبع والسرّد توجب التشويش بل هي تدرب الطالب على كيفية التتبع والتدقيق في كلمات الأعلام، كما أنها تدربه على كيفية التحقيق.

الميزة الثانية: الابتكار.

فإن الشيخ الأعظم قد توصل في هذا الكتاب إلى مطالب غير مسبوقة، وهذه المطالب قد صارت مدارا للبحث من بعده، من قبيل مسألة التواتر الإجمالي ومسألة المصلحة السلوكية، فإنك لا تجد لهذين المصطلحين ذكرا قبل رسائل الشيخ الأعظم، ومن قبيل الحكومة والورود فإنهما مصطلحان تأسسا على يد الشيخ الأعظم وصارا مدارا للبحث والنقض والإبرام إلى يومنا هذا.

وهذه شواهد كاشفة عن أن هذا الكتاب يتميز بميزة الابتكار لأبحاث جديدة صارت محلا للبحث والتنقيب من قبل الأعلام إلى زماننا المعاصر، بل إن كثيرا من المطالب الأصولية تدور مدار هذه الأبحاث الأصولية المبتكرة، كما في مصطلحي الحكومة والورود.

الميزة الثالثة : الفتح العلمي.

في هذا الكتاب الجليل فتوحات علمية، وهذه الفتوحات العلمية منذ أن افتتحها الشيخ الأعظم قده وانتصر لها لازالت سائدة محلقة في سماء الحوزة العلمية، ومن تلك الفتوحات:

مناقشته للقول بانسداد باب العلم والعلمي، والقول بحجية الظن المطلق، فإن الرأي الذي كان سائدا قبل الشيخ الأعظم هو القول بالانسداد كما كان عليه صاحب القوانين، ونتيجة لقولهم بالانسداد قالوا بحجية مطلق الظن، ولكن الشيخ الأعظم لما جاء ألقى بثقله العلمي على بحث الانسداد، ولعلك لا تجد في الكتب الأصولية كتابا اهتم مؤلفه ببحث الانسداد كما صنع الشيخ الأعظم، ومن خلال هذا البحث استطاع أن يفند جميع ما ذهب إليه من تقدم عليه، وانتهى إلى انفتاح باب العلمي في زماننا والقول بحجية الظنون الخاصة لا مطلق الظن.

ومما يؤسف له أن هذا المبحث رغم كونه من فتوحات الشيخ الأعظم العلمية صار بعده من البديهيات الأصولية، بمعنى أنك لا تجد أحدا يهتم اهتماما بالغاً بإثبات انفتاح باب العلمي، بل إنهم إن مروا على هذه المسألة مروا عليها مرور الكرام، وذلك لأن الشيخ قد لم يبق ولم يذر صغيرة ولا كبيرة في هذا المبحث إلا وبينها، وما يزيد الأمر أسفاً أن هذا المبحث من الرسائل صار ملغياً في الحوزات العلمية، بحجة أن بحث الانسداد لا حاجة له لوضوح انفتاح باب العلمي في زمان الغيبة.

هذا الكلام في الجملة قد يكون صحيحاً، ولكن قابل للتأمل من جهة أخرى وهي:

أن الشيخ الأعظم قد في بحث الانسداد قد تعرض إلى مطالب شريفة نفيسة لم يتعرض لها في غير بحث الانسداد، وبعض هذه الأبحاث أبحاث كلامية جليلة، بل إن بعض المصطلحات التي عليها مدار البحث الآن كمصطلح التواتر الإجمالي إنما أسس له في مبحث الانسداد.

الميزة الرابعة: الدقة في المنهج.

والمقصود من ذلك: إن علم الأصول - كما مر عليكم في متون أصولية سابقة- قد قسم إلى تقسيمات مختلفة، فبعضهم قسمه إلى مباحث الألفاظ ومباحث الأصول العملية، وآخر منهجه على مقدمة يتلوها مباحث الألفاظ ثم مباحث الأصول العملية، إلى غير ذلك من التقسيمات التي ذكروها.

النكته المهمة التي ينبغي أن يلتفت إليها في المقام هو السر في هذا الاختلاف، فما هو؟

سر هذا الاختلاف هو أنهم يقولون إن تقسيم علم الأصول ليس مجرد تقسيم في كتابي بحث، بحيث أن الكاتب يستحسن تقسيما منهجيا معينا وآخر يستحسن منهجية أخرى تروق له، ليس الأمر كذلك، بل الاختلاف في تقسيم علم الأصول يرجع إلى نكته علمية لا فنية، وهي أنهم يقسمونه بما يتناسب مع علم الفقه وبعبارة أخرى يقسمونه بما يخدم علم الفقه، باعتباره علما مقدما لعلم الفقه وليس مطلوبا لذاته كما لا يخفى، ولذا ينبغي تقسيم المقدمة بما ينسجم مع الاستفادة منها في ذي المقدمة، وهذا السر في اختلاف تقسيمهم لعلم الأصول.

الشيخ الأعظم قده وفق جدا في تقسيم علم الأصول بما يتلاءم مع وضعه المقدمي لعلم الفقه، لأنه قال في بداية كتابه: (اعلم أن المكلف إذا التفت إلى حكم شرعي، فإما أن يحصل له الشك فيه، أو القطع، أو الظن).

وعلى ضوء هذا التقسيم لحالات المكلف قسم كتابه، فجعل القسم الأول من الكتاب حول مباحث القطع، والثاني حول مباحث الظن، ثم جعل القسم الثالث حول ما يرتبط بمباحث الشك وهي مباحث الأصول العملية ثم تعرض لمبحث تعارض الأدلة.

هذا التقسيم وفق فيه الشيخ الأعظم، وهو يعبر عن دقة في المنهج، لتلائمه مع وضع علم الأصول المقدمي لعلم الفقه، فإن الفقيه في مقام الاستنباط في الفقه يعتمد أولا على الأدلة القطعية اليقينية، إلا أنه عندما يعوزه الدليل القطعي تصل به النوبة إلى الأدلة الظنية، فإن وجد دليلا ظنيا يمكن التعويل عليه لكونه حجة فهو وإلا فيتجه إلى الأصول العملية لتتقح موضوعها.

ثم ينتهي به المطاف إلى مباحث تعارض الأدلة، فإن الأدلة القطعية قد يحصل التعارض فيما بينها، وكذا الأدلة الظنية، وقد يتعارض الدليل الظني مع مقتضى الأصل العملي، فهو رتب هذا البحث على وفق ما يسير عليه الفقيه في عملية الاستنباط، وهذا ما جعل لهذا الكتاب ميزة تُحسب له من بين الكتب الأصولية.

الأمر الثالث: كيف يتعامل الطالب مع رسائل الشيخ الأعظم.

فنقول هذا الكتاب حاله كحال غيره من مناهج الحوزة العلمية، من حيث أن الطالب يحتاج في التعامل معه إلى الطريقة المتعارفة التي يتعامل بها مع المتون الحوزية، التي تبدأ بتحضير الدرس وقراءته ثم الحضور بين يدي الأستاذ، ثم المباحثة فيه ثم تقرير ما أفاده الأستاذ والعناية بما ألقاه، مضافا إلى ذلك ما يعثر عليه الطالب من معلومات ترتبط بدرسه مما لم يتعرض له أستاذه، فيضمها إلى تقريره ولو في حواشي مکتوباته ليتميز ما أفاده أستاذه عما استفاده هو من مطالعته.

فلا يوجد إلى هنا فرق بين كتاب الرسائل وغيره من الكتب في كيفية الاشتغال به، ولكن هنالك فرق ينبغي أن يهتم به الطالب جيدا، وهو محاولة تلخيص مطالب الشيخ الأعظم قده ومحاولة فهرستها، فكل مطلب يمر به الشيخ الأعظم قد يمر به الطالب من خلال الدرس في عشرة دروس مثلا، وحينئذ فإن حبل الأفكار في هذه الدروس العشرة قد لا يكون متصلا بين هذه المواضيع، ولذا يحتاج إلى لملمة هذه الدروس في عقد واحد، بحيث يفهرسها ولو من خلال الفهرسة المجدولة والمشجرات والرسوم البيانية المتعارفة عند الأكاديميين.

فيحدد من خلال هذه الفهرسة والتلخيص الفكرة الأساسية التي يريد
الشيخ الأعظم بيانها، ويحدد الأفكار الاستطراذية التي تعرض لها قده،
وإلا فإن مطالب الشيخ سوف تتناثر ولن يدرك النتيجة المرجوة من هذا
الكتاب.

الأمر الرابع: كيفية التعامل مع شروحه.

هذا الكتاب الجليل قد كتب عليه من الشروحات والتعليقات والحواشي ما يناهز المئتين ما بين شرح وتعليق وحواش متعددة، وما يجدر الالتفات إليه أن هذه الشروحات ليست على نسق واحد، بل يمكن تقسيمها إلى أقسام ثلاثة:

الأول: الشروح المفيدة للطالب.

ومن تلك الشروح شرح الشيخ الاعتمادي، وشرح الشيخ المحمدي البامياي، وقلائد الفرائد وهو حاشية معروفة على الرسائل للشيخ غلام رضا القمي والذي كان من أعلام قم المقدسة ومن تلامذة الشيخ الأعظم قده، وهذه الحاشية كما نقل عن السيد الزنجاني دام ظلّه أنها أنفع الحواشي وأفضلها للطالب، والأمر كما أفاده دام ظلّه الشريف.

الثاني: الشروح المفيدة للأستاذ.

ولا أظنها مفيدة لكل أستاذ، فقد يستفيد منها بعض وقد يقصر عن الاستفادة منها آخرون، ومن تلك الشروحات بحر الفوائد للمحقق الأشتياني، ولعله من أهم شروح كتاب الرسائل، وكذلك حاشية

المحقق الآخوند على رسائل أستاذه، ومثلها حاشية السيد اليزدي والتي كانت بحثه الخارج فإنه كان يباحث الخارج على ضوء رسائل الشيخ، ومنها حاشية الشيخ البارفروشي والتي يعبر عنها بالشرح الكبير للرسائل.

هذه الشروحات المستفيد منها بالدرجة الأولى هو الأستاذ وأما استفادة الطالب منها قد تكون قليلة، وذلك لكون هذه الشروحات والحواشي بمثابة التحقيق لمطالب الشيخ، ولعل هذا لا يتناسب مع المطلوب من دارس الرسائل بالدرجة الأولى.

الثالث: الشروح التي تناسب الأستاذ والطالب.

ومن هذه الشروح والتعليق : التنقيح للمرجع المعاصر السيد محمد سعيد الحكيم دام ظله، وهذا الشرح كتبه السيد دام ظله أثناء تدريسه لكتاب الرسائل، ومن أبرز الكتب المفيدة للأستاذ والطالب كتاب شيخنا المروجي دام تأييده، وهو تمهيد الوسائل إلى شرح الوسائل، وقد جمع فيه بين شرح العبارة وشرح المطالب كما أنه اعتنى فيه بتحقيق المطالب في نهاية كل مبحث، فإنه يقف عند كل مطلب ويبين الاشكالات التي أوردتها الأصوليون على مباني الشيخ ويناقشها إلى أن

ينتهي إلى ما وصل إليه الفكر الأصولي على يد السيد الخوئي قده وعلى يد غيره، ولذا هو كتاب نافع للأستاذ والطالب معا.

ومحصل الكلام أن الطالب لا بد وأن يلاحظ هذه الأقسام الثلاثة حينما يريد أن يطالع شرحا أو تعليقة على الرسائل، لكي يستفيد من الشروحات الفائدة المرجوة له ولا تكون مطالعته لها سببا لتشويشه عن هضم مطالب الشيخ في رسائله.

قام بتقرير هذه المقدمة:

أحد تلامذة السيد دام تأييده

القطيف المحروسة

١٤٤١/٧/٢١ هـ